طعـام الميتيـن

محمد عز الدين التازي

صنعوا قفزة رائعة وتعلقوا بأحد فروع تلك الاشجار . هوت أجسامهم الى الارض وهي تشعر بنعومة غريبة . تناثروا بين أرجاء المكان الواسع . احسوا ضغطا ثقيلا على صدورهم . تجمعوا في بؤرة واحدة ونظروا الى عيون بعضهم بمكر وكانت عيونهم تفهم ما يريدون أن يقبلوا عليه هنا أو في مكان آخر . الامر يختلف . هنا يستطيعون في هذا الخلاء أن يلهو بأجسادهم وأعضائهم ويلعبوا لعبتهم السرية ، يستطيعون أيضا أن يصطادوا اللقالق من أعالي الاشجار . في مكان آخر ، يمكنهم أن يبدأوا جولتهم على الحوانيت في شوارع المدينة يسطون على معروضاتها الخارجية . ويطلقون سيقانهم للريـح .

ظلوا متحلقين حول بعضهم وعيونهم تتبادل النظر وتختار أي الامور عليها أن تريـد .

الوحل والبقع المائية في كل مكان . المرج الصغير هناك . الصغار يغرقون سراويلهم في الماء العكر الذي تنمو بداخله الطحالب . يصطادون أشياء تشبه سمكات صغيرة بدون صنانير . يدخلون أياديهم في الماء مفتوحة الاكف والاصابع وهي تتحرك بليونة كأنها تغافل ما سوف تصطاده . ثم ترتفع الى الاعلى وقد أخرجت حذاء من الكاوتشو ، أو سلسلة صدئة أو اخشابا منتفخة بالماء . يضعون كل صيدهم على حافة الترعة المائية . يشرب أحدهم بكفيه ، ينحني بوجهه ، يعب من الماء العكر بفمه وينفخ في وجوه أصحابه ، يتضاحكون ، ويركضون خلفه حتى المساحة الفارغة التي تحف بها الاشجار .

رأوا جسما صغيرا مكورا وهو يتحرك ، يحمل الى جواره جسما آخر مكورا أيضا. الجلباب الرمادي والكيس الاسود المنتفخ. الخطوات تعبر بجانب

المرج . يسحب الرجل ثقله على الارض . كان الكيس منتفخا وهو لا يقدر على حمله فوق الكتفين . ظلوا ينظرون اليه وهو يقترب . بدات ملامحه تتحدد . اسمر . نحيل عضلات الوجه . غائر الاحداق . ينظر الى الارض ولا ينظر الى الاشجار والغيوم . كان ذاهبا الى البيوت الطينية التي يجف على جدرانها روث البهائم ، وتسيح بين دروبها القاذورات ، هناك تغسل النساء الاواني ويتغوط الاطفال ، يسحب كيسه ويمضي كي يبيع بضاعته قبل هبوط الليل . لا حقته عيونهم . دخل وسط الاحراش القصيرة . تململ في مشيته . توقف . حاول أن يحمل الكيس على ظهره . ارخى جسده على ركبته . ادار ظهره الى الكيس ممسكا به من الخلف . اعتمد على ضغط قدميه على الارض ، ومال قليلا نحو الامام ، بحذر شديد حتى لا يسقط ، ويقع عليه الكيس الذي كان صلبا . لم يستطع . حاول مرة اخرى . بدات سيقانه ترتخي ولا تساعده. عاد يسحب الكيس بيديه على الارض . لماذا ملاه الى هذا الحد ؟ كان عليه ان يكتفي بما يقدر على حمله . الزبائن عددهم كثير وهم يتهافتون عليه حتى تنشب بينهم الخصومات وينفذ مبيعه في أقل من الساعة . ايضا كانت المسافة قريبة ، وقد حصل اليوم على بضاعة وفيرة ، فلماذا لا يشبع بطون الناس ؟ ناوبته الحسرة . احس ضعفا ثقيلا على صدره . لم يفكر في ان يعود بالكيس من حيث اتى . ظل الحزن يمزق قلبه . قال لنفسه : اما ان اكون حفار قبور أو باحثا عن الكنز . لماذا لا أكونهما معا ؟ غيري من يحفر القبور ، ويواريها الدفائن ، وانا انبشها حتى استخرج الكنز . عاودته الفرحة . أخذ يضحك بصوت مرتفع . استدار خلفه خوفا من أن يسمعه احد . لا احد هنا بين هذه الاحراش .

ظلوا يلاحقون خطواته وهو لا يراهم . ينطون خفافا في الهواء كالعفاريت . يخنقون ضحكاتهم ويلتبسون بالاشجار . يومئون لبعضهم بالاصابع وحركات الوجوه . اشار احدهم ان يتحلقوا حوله ، وهمسوا في آذان بعضهم :

- هذا هو المكان المناسب .
- لنؤجل حتى يقترب من الهضبة .
- هنا افضل .
- نجهز عليه جميعا . بعضنا يقيد اياديه . والآخر يحمل الكيس ويهرب .
- نقيده مع شجرة حتى لا يلحق بنا .
- من اين نأتي بالحبل ؟

ـ لا حاجة الى فلسك .
ـ اتركوا الرجل وتعالوا نصطاد اللقالق .
ـ نجمع بيضها أفضل .
ـ نصعد الشجرة هناك ، ونختبيء وراء العروش ، ثم نمسكها من الاجنحة على حين غرة .
ـ اصعد وجرب .

لم يصعد ولم يجرب . نظر اليهم نظرة مغايرة . قال لهم :

ـ تعالوا نجهز على الرجل ، ونختطف الكيس .

قال آخر :

ـ حرام .
ـ أسكت انت ما زلت صغيرا . انه لا يدفع مالا في بضاعته . يحفر قبورا ويستخرجها ليبيعها لنا بالنقود ، ولا يقبل الدين ، ولا يزيد قطعة صغيرة فوق القطع المنضودة على الارض ، ولا يخفض من الثمن الذي طلب . هو لا يعرف الحلال من الحرام .
ـ دعونا نصطاد اللقالق .
ـ هيا نعود الى المرج والترعة .

ظلوا يتهامسون ، كانت أصواتهم قد ارتفعت عندما أدركوا أن الرجل قد تجاوزهم وابتعد بين الاحراش القصيرة .

الشمس في مغيبها تماما ، بعد أن اختفت الوانها العجيبة . ظهرت زرقة خفيفة شفافة تشتد قتامتها مع امتداد الزمن . كان يرتفع مع الهضبة الصغيرة لينحدر الى المكان الذي تعمره بيوت من الطين الاحمر والزنك والواح واعمدة الخشب المنخور . دخان حاد أسود يعلو من كل البيوت ثم يتلاشى . نهيق حمار متقطع . ظل يسحب الكيس وعرقه يتصبب على جبينه وفوديه . تنغرس أصابعه بين ثنايا الثوب الخشن ويسحب بعنف متمسكا به خوف أن يفلت منه وينحدر مع الهضبة الصغيرة ، ويضطر الى الجري خلفه وبذل مجهود آخر ، أو ربما جذبه أيضا فيسقط على بطنه أو يتهاوى الى المنحدر . كلبة تقترب من مكان خطواته ، وقد استفزتها حمية الرائحة التي كانت تتشممها من الكيس . الكلاب تميز رائحة اللحم من بين جميع الروائح . استدار خلفها وقد أراد أن يرميها بحجرة . رآى جلود اثدائها التي تتمايل حول البطن . أشفق عليها وتركها تمشي بجانب خطواته. نظر الى الكيس بفرحة . فجأة تحولت فرحته حزنا غائما أسود . ماذا لو ضبطوه يبيع بضاعته الى الناس ؟ سيساق الى السجن . لا يهم . ولده

سينوب عنه في نبش القبور واستخراج الكنز حتى يحول الاولاد الآخرين . كان لا يقبل منه مساعدة حتى لا يقبض عليهما معا في وقت واحد . لا ضرر في أن يتناوبا على السجن . لمست يده العظام الصلبة داخل الكيس . فكر في المرة القادمة في ان يتوقف بين الاحراش ويهبر اللحم ويترك العظام للكلاب ، بذلك يرتفع الثمن ، ويخف عليه الثقل .

عند ما أطل عليهم بجر كيسه وخطواته ، أخرجوا قطعهم النقدية وتجمعوا حواليه . تنحى جانب شجرة سنديان تلتصق بصف البيوت . فتح فوهة الكيس . أخذ يخرج قطع اللحم ويوزعها على الأرض . لم يكن يستعمل ميزانا . يبيع بالمعاينة . هذه القطعة بثلاثين ، والاخرى بسبعين .. حسب الحجم . القطع اللحمية متربة ولا بد من غسلها جيدا قبل الطبخ .. هكذا كان ينصحهم باستمرار . التراب تراب الارض .. وأنتم تحبون كل شيء لـه علاقة بالارض ، كلوا من رزقهاولا تخافوا أي شيء ، ما تدفعونه لي من نقود هو رزق أولادي أيضا ، هم كذلك يأكلون من هذه اللحوم . قطعة واحدة وأنتهي . من يأخذ ؟ غدا سآتي اليكم في مثل هذا الوقت . من يأخذ هذه القطعة الباقية ؟ يحملها أحدهم ويلقي بقطع نقدية على الارض . يدخلون ببيوتهم . ينطوي الرجل كيسه ثم يضعه تحت أبطه . يعد النقود ويمضي . يتسلق الهضبة الصغيرة . يحترس من أن تغوص أقدامه في الارض الطينية اللينة . يضع أقدامه على بعض الاحجار وهو يخطو . حجرة . حجرة . حجرة ... رفع رسه الى بعض الاشجار ، رآى ثمارها الجافة المعلقة ، وأغصانها العارية المتشابكة التي تشكل في الظلام هالة سوداء تشبه شعر امرأة . أحس فرحة بوجوده بين الاشجار ، وحيدا ، في طريق عودته الى بيته الطيني في الجهة الشمالية وراء المرج . كان يحاول ان يتلمس طريقه قبل أن تتحول الزرقة السماوية الى ليل داكن يحجب كل شيء .

في الصباح ، سوف يقف على بعد مسافة من باب المجزرة ، يوحي للناس بانه يفعل شيئا ما ، ينتظر أحدا ، يتبول خلف السور القصير ، يشتري المصارين من احد الجزارين ، أي شيء آخر ، وعينه على البيطري . سيارته هناك . بعد قليل يخرج ليعود الى المركز ، وبعد ذلك بفترة ، سوف يحملون الذبائح المريضة ليواروها التراب . في ذلك الوقت ، يتعقب الخطى ليعاين مكان الدفن ، ثم يعود في وقت آخر لينبش القبور ويضع اللحوم في الكيس ليذهب بها الى الاهالي .

فبراير 79